

Civilized Communities in the Central Maghreb: The experience of Rustumids as a Case of Study

المجتمعات المتمدنة في المغرب الأوسط

تجربة الرستميين نموذجاً 1

د. عبد الرحمان بلاغ

جامعة طاهري محمد. بشار، الجزائر

bellagh.abderrahmane@gmail.com

قدم للنشر في: 2018 /04/11

قبل للنشر في: 2018/04/28

Abstract:

The Rustumid elements of society and authority contributed to building an approach that made integration an essential pillar. Politics did not become fanatic of a Berber tribe despite some occasional surges of fanaticism. The Taharti authority did not reject the non-Ibadite doctrines and creeds. The Tahrati community embraced all ethnic groups that have contacted it. The centrality of Tahrati to the conduit routes in the Islamic West and to the western Sudan was a fundamental pillar in the structuring of this approach

Keywords: Ibadi ؛ Tahrati ؛ Urbanization ؛ fanaticism ؛ The mix in ؛ Sectarianism.

ملخص

ساهمت العناصر الرستمية مجتمعا وسلطة في بناء مقاربة جعلت من الاندماج خطها المحوري، فالسياسة لم تتعصب لقبيلة بربرية وإن أطلت برأسها في بعض المواسم، والسلطة لم ترفض المذاهب والنحل غير الإباضية، والمجتمع التاهري احتضن كل الفئات الإثنية التي اتصلت به، إن محورية تيهرت على المسالك القوافلية في بلاد الغرب الاسلامي وإلى السودان الغربي، تعتبر دعامة أساسية في هيكلية هذه المقاربة.

الكلمات المفتاحية: الإباضية؛ تيهرت؛ التمدن؛ العصبية؛ التمازج؛ المناظرات؛ المذاهب غير الإباضية.

المقدمة:

غالباً ما تُقرء المجتمعات البربرية قراءة سياسية، تركز على نشأة الدول وسقوطها، مما دفع ببعض المستشرقين ومن نحا نحوهم إلى وصف تلك المجتمعات بالمتحدة وغير القابلة للاستقرار والتمدن. إلى جانب ذلك هناك دراسات حديثة تقف عند رصد عناصر المجتمع ونشاطهم، بل وتجعل من ذلك التنوع المجتمعي عاملاً من عوامل التفكك السياسي.

من خلال ورقتنا العلمية، نحاول إبراز الجوانب الإيجابية والفاعلة التي جعلت من القبائل البربرية سيما زناتة، تشكل مجتمعا مدنيا على مستوى كبير من النضوج السياسي والفكري فضلا عن التمازج المذهبي والمجتمعي.

وعليه فالإشكالية التي تتمحور حولها المداخلة، إلى أي مدى استطاعت الدولة الرستمية تجاوز عصبيتها الزناتية إلى

بناء مجتمع مدني؟

قراءتنا هاته ستجعل من الاستقراء والتحليل منهاجاً لتفكيك الاشكالية، مما سيعطي قراءة جديدة للروايات التاريخية المصدريّة.

1- النضج السياسي والفكري لإباضية تيهرت

رغم أن القبائل البربرية الإباضية كانت منتشرة في المغرب الأوسط، إلا أنها لم تسع للإجتماع البشري في إطار دولة وبناء مدينة، ولم يحصل ذلك إلا بعد هزيمة ومقتل الإمام أبي حاتم المزروزي الهواري عام 155هـ/772²، ولجوء أتباعه بقيادة عبد الرحمن بن رستم (160-171هـ/777-788م)، إلى أحواز تيهرت من المغرب الأوسط، حيث مضارب قبيلة لماية ولواتة وهوارة ونفوسة ومزاتة الزناتية، وما كان لجوئه إليها إلا لتقديم حلف بينه وبينهم وللأخوة المذهبية على حد تعبير ابن خلدون³.

إن حالة التششت التي عرفت القبائل الزناتية بعد مقتل الإمام أبي حاتم، وظهور زعيم أو أكثر يدبر أمر القبيل الواحد حسب رواية ابن الصغير⁴ جعلتهم يعمدون إلى تقديم إمام لهم، سيما وأن الإمامة واجبة⁵ تبعاً لما يترتب عليها، إذ يقيم أمرهم ويرفع رأيهم بمدافعة أمراء بني العباس من جهة، وقيم الحق والشرع فيما بينهم، على حد قول رؤوس إباضية زناتة لعبد الرحمن بن رستم: (فقد علمت أنه لا يصلح أمرنا إلا إمام نلجأ إليه في أمورنا ونحكم عنده فيما ينوب من أسابنا)⁶، لكن الملفت في أمر إباضية الرستميين، يتمثل في انتصارهم على القبيلة "العصبية المقيتة" بتقديمهم لعبد الرحمن بن رستم الفارسي للإمامة في ظل وجود من هم أهلها بين رؤساء وشيوخ القبائل الزناتية المحتضنة له⁷، حفاظاً على بيضة الإباضية، لأن تقديم أي منهم سيدفعه إلى أن يرفع أهل بيته، فتفسد نيات رؤساء القبائل الأخرى ويقع الخلاف.

ظل هذا الاتجاه مختمراً طيلة فترة حكم الدولة الرستمية، لكن شرط "الغربة" حسب الباحث بحاز هو الذي الذي أبقى الإمامة مستمرة في سلالة عبد الرحمن بن رستم الفارسي البعيدة عن وطنها والتي لا تنتمي إلى قبائل البربر⁸ - وإن حدثت مصاهرات بربرية-رستمية- إن هذا الموقف يبرز مستوى النضج السياسي والفكري للقبائل البربرية الإباضية.

لقد تعرضت الإمامة الإباضية "الرستمية" لهزات عنيفة كادت تعصف بها، والمتتبع لمختلف الانشقاقات يجد أنها كانت ذات خلفيات قبلية-سياسية، وأنها حصلت من أطراف من خارج البيت الرستمي، وهناك انشقاقات أخرى تغدت من عناصر محسوبين على البيت الرستمي.

لعل تلك العبارة التي ذكرها ابن الصغير في معرض حديثه عن بدء أمر إباضية تيهرت وتولية عبد الرحمن بن رستم تدل على مسارعة قبيل من البربر إلى قطع الطريق عن أولئك الساعين إلى ترؤس أمر الإباضية، حيث تم تقديم عبد الرحمن إماماً ليس لعلمه فقط، وإنما لغياب مؤشر القبيلة الذي يعضده، وتم إبعاد العناصر الأخرى المنافسة من سباق الإمامة، رغم أهليتهم لها بدعوى ما قد يحصل من إثارة للعصبية على حساب الإمامة، نلمس في ذلك انتصاراً للمذهبية على حساب

العصبية، فقوة مؤسسة الإمامة مستمدة من مدى إلتزام الإمام بالشرع، وليس بمن يصطف حولها من القبائل بدعوى العصبية، وفي رواية ابن الصغير ما يعضد ذلك في قوله: (فقلبوا أمرهم فيما بينهم فوجدوا كل قبيل منهم فيه رأس رأسان وأكثر يدبر أمر القبيل ويستحق أمر الإمامة، فقال بعضهم لبعض ... رؤساء ولا نأمن أن يتقدم واحد على صاحبه فنفسد نيته، ولعل المقدم أن يرفع أهل بيئته وعشيرته على غيرهم فتفسد النيات ويكثر الاختلاف ويقل الائتلاف) ⁹.

تعود مسألة القبلية في مواجهة الإمامة الإباضية بعد وفاة عبد الرحمن بن رستم 171هـ/ 788م، فهذا يزيد بن فنيند اليفرني الزناتي، دعا إلى تأسيس هيئة استشارية "معلومة" كشرط لمبايعة عبد الوهاب بن عبد الرحمن، بحيث (لا يقضي -عبد الوهاب- أمراً دون جماعة معلومة)، بهدف تقييد سلطته ¹⁰. على الرغم من أن الطرح مقبول من حيث المبدأ، إلا أن فقهاء الإباضية وعلى رأسهم مسعود الأندلسي أعلنوا بطلانه، ما دام الإمام يحكم بالكتاب والسنة، وتم تأييد هذا الحكم من أعلام المذهب الإباضي المشاركة بالقول أن: (الإمامة تامة والشرط باطل) ¹¹. إن سعي ابن فنيند اليفرني ¹² إلى تأسيس هذه "الجماعة" هو في تقديرنا محاولة لإيجاد موطئ قدم لقبيلته في السلطة الجديدة، كما أن مدافعة أصحاب مسعود الأندلسي لهذا الطرح يدخل في إطار إبعاد سلطة الإمامة عن سلطة القبيلة.

إن الحرية السياسية التي حفل بها العهد الرستمي أدى إلى انشقاقات في الكتلة الاباضية، لأننا إذا نظرنا إلى مختلف مراحل "افتراق" الإباضية نلاحظ أنه كان يقف خلفها الدافع السياسي، وإن كانت مآلاته أنتجت مقالات مذهبية فقهية، وهكذا تولد الأحكام الفقهية من رحم التفاصيل السياسية ¹³. فمدار الافتراق عند الاباضية يتمثل في الإمامة وشرعية الإمام، ومن الواضح أن كل افتراق يجذب إليه قبائل معينة ضاغطة، تسعى لأن يكون لها نصيب من القرار السياسي.

يتضح من توالي الأحداث أن هذه القبائل الضاغطة، استعملت وسائط للنيل من شرعية الإمام الإباضي، فوظفت العامة مرة ثم المصاهرة ثانيا وطلب الإمارة في الأقاليم ثالثا وغيرها، إلا أن تلك المساعي ذات البعد القبلي كان مآلها الفشل، وظل مركز الإمامة مستمرا رغم حالات التشنج والافتراق، مثل ما حصل مع الإمام عبد الوهاب (171- 208 هـ) ¹⁴ في محاربته للنكارية من قبائل سدراتة ومزاتة، وولت القبائل الداعية عليه إلى مواضعها واستمسك الأمر لعبد الوهاب.

إن الصبغة السياسية التي طبعت الحركة النكارية ضد الوهبة تم افحامها بالعودة إلى مبادئ الإباضية من أعلامها بالمشرق، أو يمكن أن نغفل إلى قول منصف قوجة من أن (النزعة الوهبة تمثل إباضية الحضر وإيديولوجية الدولة الرستمية في المدينة، في حين أن النزعة النكارية تعبر عن إيديولوجية قبائل الرحل) ¹⁵، لأن حالة التشنج كادت أن تهدأ بعد التحكيم ووصول إجابة علماء المشرق، لولا دخول عناصر قبلية أخرى غير متمدنة "رحل" على الخط بدعم من مناوئي الإمام، بتهم تتعلق بأعوان الإمام، مثل القاضي وصاحب بيت المال وصاحب الشرطة. ودفعاً للحرج وانفلات الأمور سمحت إباضية الحضر برفع المطالب للسلطة الرسمية التي استمعت إلى مقولاتهم وفوضت لهم أمر خلع وتقديم من يرونه أهلاً لهذه المناصب المطعون في قيادتها، وهذه إحدى مظاهر "الانتخاب الديمقراطي" الذي يميز المجتمعات المتمدنة، لكن الإشكال يتمثل في تقليد العوام أمر الخلع والتقديم، إذ غالبا ما تكون نتائجه عكسية، سيما ونحن في هذا المقام نتكلم عن عزل دون تقديم

إثباتات الإدانة وفق ما ذكره ابن الصغير) أنتم تعلمون أنه لا يجب عزل قاض ولا صاحب بيت مال إلا بجرحة تظهر عليه ولا يجب عزل القضاة ببغي البغاة وسعي السعاة فأفعم القوم ولم يكن عندهم جواب¹⁶.

إضافة إلى ذلك، لنا في وفد نفوسة الجبل الذي قدم على الإمام أفلح مثال آخر، يبرز حرية رعايا الأقاليم في تقديم من يرونه مناسباً في المناصب الكبرى، ونظراً لحصافة ونضج نفوسة السياسي (سألوه أن يولي القضاء من يستحق ذلك)، فلم يقدم وترك لهم الرأي، وبعد المشاورات أجمع رأيهم على محكم الهواري الأوراسي، فقال الإمام أفلح: (ويحكم دعوتهم إلى رجل كما وصفتم في ورعه ودينه، ولكن هو رجل نشأ في بادية ولا يعرف لذي القدر قدرهم ولا لذي الشرف شرفه)¹⁷، إن ما جرى في هذا المجلس، يمحس لنا رغبة نفوسة الراعية للإيدولوجية الإباضية في إنزال الشرع محل التنفيذ من جهة، وابتعادها عن العصبية المقيتة¹⁸ ونظرة الإمام الموضوعية المتمدنة التي تسعى للتوفيق بين متطلبات المذهب والتمدن من باب "أنزلوا الناس منازلهم"¹⁹.

مع احتفاظ نفوسة بموقفهم المؤيد لتولي محكم الهواري القضاء، لم يجد الإمام بدا من دعوته، فلما حضر قال: (إن الحق مر وأمر من شرب الدواء ولا يشرب الدواء إلا كرها وأنتم مرفهون أبناء نعم وغيري أحب إليكم مني، وقد نصحتكم، فأقبلوا نصيحتي)²⁰. ولعل تطور الأحداث بعد ذلك أبرز صدق نظرة الإمام أفلح التي تأخذ بعين الاعتبار انعكاسات التمدن على نفسية أهل البلاط، وتفاني القاضي الهواري في إقرار العدل بلا مراعاة، مما أوجد حالة من التدمير في أوساط "المرفهين" الذين رشحوه للقضاء، خاصة أبي العباس أخو الإمام أفلح، فقد كان أشد الناس حرصاً على تولية محكم القضاء. وبمجرد وقوفه أمامه في نزاع مع صهر الإمام حول أرض، حتى خرج من عنده غاضباً ونعته إياه بالقاضي الشرس الجاني²¹.

إذا كانت قبيلة نفوسة قد حمت الإيديولوجية الإباضية²² وأيدتها في ولاية أفلح بقولهم: (لم يكن الشراه تطعن عليه في شيء من أحكامه ولا في صدقاته ولا في أعشاره)²³، فإنها لم تنساق أمام مقولات أحد النفوسيين من زواغة بجبل نفوسة، الذي جهر بانتقاد الإمام أفلح بن عبد الوهاب (208-258هـ)، وإذا كانت المصادر الإباضية تعزو هذا النقد إلى طموح فرج بن نصر النفوسي المدعو "نفاث" إلى الإمارة على إقليم قنطرة، وأيد هذا الطرح بعض الباحثين المعاصرين الذين اعتبروا حركته (... الطموح إلى الزعامة التي لم يحظ بها، لذلك أراد أن يؤلب الناس على الإمام أفلح بآرائه في الإمامة)²⁴.

نستنتج من مقولات "نفاث" أن الأمر أعمق من ذلك، باتهامه للإمام بـ (الميل إلى حياة الترف والقيود عن قتال الأغلبة)²⁵، فضلاً عن نقمته من مبدأ الوراثة في الحكم، لكن الملاحظ أن المدعو نفاث وقبيلة زواغة الراعية لأفكاره، لم ينزلق في صدامات مع إباضية الحضر.

لما رأى الإمام محمد أبو اليقظان (260-281هـ) طول الحرب بينه وبين الناقمين على إمامته مثل محمد بن مسالة ومن يناصره من أهل المدينة، كتب إلى نفوسة الجبل يستنفرهم، حيث (اجتمع إلى أبي اليقظان جمع عظيم، فرحل بجميع جموعه من نفوسة وغيرها حتى نزل من المغرب من مدينة تاهرت ... قالت نفوسة: لا نقاتل حتى نرسل إلى إخواننا وننذرهم، فإن جاؤا ورجعوا إلى الطاعة كانت أيدينا وأيديهم واحدة.... فأرسلوا رسلهم، وخوفوا الناس من شر العواقب

ووجدوهم قد ملّوا الحرب، فقالوا لرسولهم: قد تقدمت فيما بيننا دماء وأموال... فإن عقدوا صلحا على أن لا يتبع أحد بدم ولا مال فسمعا وطاعة²⁶ فأعطوهم على هذا ما أحب من العهود والمواثيق (ثم خرجت طائفة من عسكر أبي اليقظان حتى اجتمعت بطائفة من أهل المدينة، فعقدوا ذلك فيما بينهم، فقالت نفوسة، نحن إنما جئنا لإصلاح بيضتنا وتأليف أمرنا وقوام ديننا، ولم نأت لطلب علو في الأرض ولا فساد)²⁷.

لم يكن الصراع الذي نشب بين أفراد البيت الرستمي، يعقوب بن أفلح وابن أخيه أبو حاتم بن أبي اليقظان صراعا مذهبيا إباضيا، إنما هو في حقيقة الأمر صراعا بين المتمدنين وسكان الأطراف، حول من يكون أولى بالإمامة في الرستميين، إذ لما قبض أبواليقظان عام 281هـ، التفت عامة الناس والحرفيين وقبيلة لواتة حول أبي حاتم، لأنه كان سمحا جوادا لين العريكة، يسمح أهل المروءات ويشايهم على مروءاتهم، بينما عارض أهل المدينة هذا الاختيار، ورأوا أنه لا يمكنهم مدافعة أبي حاتم وأتباعه عن المدينة ما لم يكن عندهم رئيسا من الرستميين ينحل الإباضية²⁸، فقدموا يعقوب بن أفلح وعقدوا له الولاية، وبذلك انكسرت شوكة "إباضية القبائل" وارتدت جماعة عن أبي حاتم لصالح إمام الحضرة يعقوب بن أفلح.

التعايش المذهبي والمجتمعي

أ- تنوع المذاهب في تيهرت:

حينما تسود المعرفة العلمية أي مجتمع يصبح الاختلاف نعمة، والدارس للمجتمع الرستمي يلتبس قدرته على استيعاب حملة المذاهب والأفكار المخالفة، وهذا نابع في تقديرنا عن سمو قيمة المعرفة؛ فهذا الدرجيني يرى أن بيت الرستميين كان بيت للعلوم وجامعا لفنونها²⁹ والناس حينما يحضرون حلق المناظرات بين المعتزلة والإباضية مثلا كانوا على دراية بما يقولون وما يتداول في مجلسهم³⁰، مما يجعل مقولاتهم حديث الناس ولم تكن حكرا على رجالها.

لم يكن التعايش المذهبي قرارا سياسيا رستميا فقط، وإنما ممارسة مجتمعية يومية، أوجدها أنموذج حياة المجتمع المؤسس على التفاعل الإيجابي مع عناصره الأصيلة والوافدة، بحكم مركزية الإطار الجغرافي لتيهرت في شبكة المسالك التجارية، ونظرا لهذه الخاصية نجد أئمة الدولة أنفسهم يناظرون المخالفين لهم مثل الإمام عبد الوهاب³¹ بل ويتبنون مواقف ومذاهب تخالف مذهب الدولة الرسمي، ونجد لذلك امتدادات واصطفاف بين مشايخ البلد وعناصر المجتمع، مثل ما حصل أيام أبي اليقظان (241-281هـ / 855-894م). وهذا مؤشر بارز على تشيع هؤلاء الأئمة الرستميين بروح التسامح والحرية الفكرية النابعة من الشريعة الإسلامية³².

تبعا لذلك تردد في المصادر الإباضية عبارات تدل على انتشار مذاهب وفرق لا تقول بمقولات الإباضية، مثل (وكانت مشايخ البلد من غير الإباضية)³³، (جمع - أبو حاتم - مشايخ البلد إباضيتها وغير إباضيتها)³⁴ (من أتى إلى حلق الإباضية من غيرهم قربه)³⁵ (كان ميمون - ابن عبد الوهاب - رأس الإباضية وإمامهم وإمام الصفار والواصلية)³⁶، رغم هذا التباين تؤكد المصادر أن المجتمع الرستمي احتوى تلك الاختلافات، وإن لاحظنا أن بعض الفترات شهدت تفرد كل فرقة

بمشايخ ومقدمين، لكن الإمام أميمون بن عبد الوهاب سعى لأن يكون على رأس كل المذاهب والفرق المنتشرة في دولته من إباضية وصفرية وواصلية معتزلية.

كما لا نستبعد أن تكون فرق أخرى متفشية في أحواز تيهرت بين القبائل، لأنه حينما عسكر أبو عبد الله الشيعي الداعي الفاطمي، قبالة تيهرت متأهباً لدخولها عام 296هـ، خرج إليه من فيها من وجوه فرق الشيعة والصفرية والمالكية، وقدموا له الشكاية في الإمام يقظان (294-297هـ) آخر أئمة الرستميين³⁷.

تجلى رسم الاختلاف المذهبي في تلك المناظرات التي عقدها إباضية تيهرت مع مخلفيهم تناولت مسائل كلامية وعلمية حول نظام الحكم والتوحيد وحرية الانسان والحركة والانتقال وغير ذلك، حيث ناظر العالم الإباضي عبد الله بن اللمطي أحد علماء الواصلية³⁸، بل ونجد النقاشات الكلامية حاضرة وطبول الحرب تفرع، مثل مناظرة المهدي النفوسي الإباضي للمعتزلي³⁹.

إن حالة التعايش المذهبي شهد فصولها كذلك البلاط الرستمي، الذي لم يكن فضاء سياسياً محضاً، بل شبهه الدرجيني بـ "المسجد" لما كان يشهده من أشكال العبادات ف (طائفة يصلون وطائفة يقرؤون الكتاب، وطائفة يتذكرون في فنون العلم)⁴⁰، وكان مجلس الإمام أبي اليقظان (ت 281هـ / 894م) في المسجد الجامع يحتضن وجوه القوم ومتقدمي المذاهب في دولته، مثل النفوسي عيسى بن فرناس، والهوري ابن الصغير وعبد الله بن اللمطي والعربي الخارجي محمود بن بكر.

كان بلاط الإمام أبي حاتم (ت 282هـ)، يحفل بفقهاء يتبنون أقوال المعتزلة من الكوفيين كالشيخ أبي دنون وأبي مسعود، وجاورهم من سادة تيهرت علوان بن علوان⁴¹، كما كانت المساجد ملتقى لأصحاب المذاهب والفرق، ومسرحاً لعديد الحلقات الفقهية بين الإباضية والمعتزلة، لمناقشة المسائل الفقهية محل الاختلاف، دون أن يكون ذلك مدعاة للإقصاء والتكفير، بل اتسمت تلك الحلق بقبول الآخر دون امتعاض، وتتم المناظر في هدوء ولطف من كلا الطرفين⁴² سبيلهم في ذلك الإقناع بالحكمة ثم الموعظة الحسنة، وقد نبغ بفضل ذلك بعض اليهود والنصارى في المغرب الأوسط، منهم يهودا بن قريش التاهرتي الذي كان في القرن الرابع الهجري بعد زوال الدولة الرستمية بقليل⁴³. وهذا المنحى يقودنا إلى اكتشاف زيف إدعاءات غوتيه من أن (مذهب الخوارج مذهب ضد المجتمع) ويقول فيه عن زناتة ممثلة المجتمع التيهرتي (فهؤلاء لا يستطيعون الخضوع لسلطة موحدة... في المدن مثلاً كان معظم المنتمين للمذهب الخارجي من الطبقة الشعبية الدنيا)⁴⁴.

كما لم تكن وظائف الدولة ونظمها حكراً على ذوي الاتجاه الإباضي، وإنما شاركهم في تقلدها عدداً من حاملي المذاهب الأخرى، سيما بعد الفتنة التي شهدتها عهد الإمام أبي حاتم⁴⁵، حيث جمع مشايخ البلد (إباضيتها وغير إباضيتها فاستشارهم فيمن يوليه قضاء المسلمين.. بيت المال... الشرطة)⁴⁶، ويدعم هذا السياسة التي اتسمت بعدم التعصب ما ذهب إليه الباحث جودت عبد الكريم: من أن المدن الإسلامية الثلاثة تيهرت الإباضية وسجلماسة الصفرية وفاس العلوية السنية، قد تحلت جميعها بسياسة عدم التعصب المذهبي، ولم يذكر أي من المؤرخين أن واحدة من هذه العواصم قامت

باعتداء على أخرى، لحملها على اعتناق مذهبها بحد السيف، ولا تحت أي مبرر آخر، بل إن الالتزام بمذهب ما، لم يكن ليتجاوز حدود طبقة العلماء والطلاب في أغلب الأحيان كما يظهر⁴⁷.

ب- التمازج المجتمعي:

إذا كانت نواة المجتمع الرستمي قد شكلتها القبائل الزناتية مثل لواتة ونفوسة ومزاتة وسدراتة إضافة إلى هوراة وصنهاجة، حيث قال الإمام عبد الوهاب (ما قام هذا الدين إلا بسيوف نفوسة وأموال زناتة)⁴⁸ ، نجد عناصر "دخيلة" قاسمت المكان معهم و(قد انتعش فيها الغريب، واستطاب بها اللبيب)⁴⁹ ، ويؤكد ابن الصغير وأبو زكرياء واليعقوبي على أن أغلب الغرباء من العراق حتى سميت تيهرت بـ "عراق المغرب"⁵⁰ إذ يقول: (والمدينة العظمى مدينة تيهرت جلييلة المقدار عظيمة الأمر تسمى عراق المغرب، ولها أخلاط من الناس غلب عليها قوم من الفرس)⁵¹ ، ويجعل ابن الصغير⁵² أن سبب هذا التمازج المجتمعي بين الوافد وصاحب البلد إلى الرخاء الاقتصادي والتجاري الذي عم الدولة حتى قوي الضعيف وانتعش الفقير، إضافة إلى العدل الذي طبع العلاقة بين الإمام والرعية، وأمانة الحاكم والأمن والاستقرار الذي تنعم به البلد.

كما شهدت تيهرت نزوحاً لعدد لا يستهان به من عرب القيروان ويبرز ذلك من خلال دورهم بعد مقتل ابن عرفة في عهد الإمام أفلاح، حيث تجمع أنصاره بقيادة محمود بن الوليد، ومعهم جند القيروان من العجم بقيادة خلف الخادم مولى الأغلب بن سالم⁵³ ، وطبيعي أن يؤيد هؤلاء الوافدين من القيروان، أنصار محمد بن عرفة في محتهم، لأن ابن عرفة مثلهم قادم من القيروان وكانوا من رجاله.

كما شكل العجم عنصراً فاعلاً سياسياً واقتصادياً، إلى جانب الإمام أبي يقظان مع نفوسة والرستميين و لصف الإمام أبي حاتم مع صنهاجة بسبب نفية محمد بن رباح ومحمد بن حماد⁵⁴ . وكان هؤلاء درب خاص⁵⁵ مع نفوسة. أما اقتصادياً فقد بلغ بعضهم في الثراء مبلغاً كبيراً فصارت لهم أسواقاً كاملة تنسب إليهم مثل ابن وردة الذي ابتنى سوقاً عرف باسمه⁵⁶ ، ونعتقد أن الأفارقة الذين ذكرهم ابن الصغير هم من بين العجم الذين عاشوا في كنف الدولة كأفراد في المجتمع، وكان بعضهم من المسيحيين⁵⁷ ولهم منزلة خاصة لدى بعض أئمة الرستميين كالإمام أفلاح بن عبد الوهاب وأبي يقظان. (كانت الدولة الرستمية دولة الأخوة الإسلامية الكاملة... اليهود والنصارى كما كان فيها العجم والعرب والسودانيون والأوروبيون من صقلية وإيطاليا والأندلس والجزر الأخرى القريبة من المغرب)⁵⁸ .

إلى جانب المذاهب والفرق الكلامية، رحبت الدولة الرستمية بنزول العلويين السنينيين بينهم من أبناء محمد بن سليمان العلوي، ونظراً للمكانة التي حظوا بها في المجتمع الرستمي، أهلته لتأسيس مالكا لهم بعد سقوط تيهرت 296هـ بالمدن التي استقروا بها ، مثل مدكرة ومدينة خضراء، إذ يورد اليعقوبي وهو يذكر أبناء محمد بن سليمان في المغرب الأوسط في زمانه: (وبعد متيجة مدينة مدكرة فيها ولد محمد بن سليمان ومدينة خضراء، ويتصل بهذه مدن كثيرة ... يتغلب على هذه البلدان ولد محمد بن سليمان كل رجل منهم مقيم ومتحصن في مدينة وناحية وعددهم كثير حتى أن البلد يعرف بهم وينسب إليهم، وآخر المدن التي في أيديهم سوق إبراهيم وهي المدينة المشهورة)⁵⁹ .

ويظهر أن هذا التعايش انعكس على الحالة الاقتصادية للمجتمع الرستمي، المتمدن منه والقبلي، حيث أضحت القبائل المنتشرة حول تيهرت غنية فاتخذت العبيد وركبت الخيول، ونالها من الكبر ما نال أهل المدينة⁶⁰، ويظهر أن المجتمع الرستمي مجتمعاً متكافلاً فيما بينه خاصة ويراعي وضعياً الفئة الهشة من أهل المذهب وغيرها، فكان الإمام عبد الرحمن⁶¹، إذا حضرت الصدقات بين يديه عجل بما يفسد من الطعام إلى الفقراء، بينما الصدقات الأخرى من الشاة والبعر، يبيعها ويصرف أموالاً منها إلى العمال القائمين على جمع الصدقات كل حسب عمله، فإذا أنهى ذلك أحصى الفقراء والمساكين داخل تيهرت وخارجها، واشترى من مال الصدقة المتبقي أكسية وجبابا صوف وفراء وزيتاً، ثم يوزعها عليهم، وفي ذلك إشارة واضحة إلى كثرة المال المحبى من الصدقات.

لقد أثرت نقاشات وتفسيرات من طرف الباحثين حول وجود أهل الذمة بالدولة الرستمية. مبدئياً وفي إطار تحليل العلاقات بين دويلات الغرب الاسلامي، نجد هناك تواجداً لتلك العناصر سيما اليهود، لما عرف عنهم من ولوج ميدان المبادلات التجارية التي ميزت تلك الدول والاستيطان بمراكزها سيما تيهرت، لكن إذا عدنا إلى الروايات الرستمية المصدرية، يحاول المحقق موتلانسكي إقحام كلمة المسيحيين في نص ابن الصغير في قوله: (فصعد إلى أعلى موضع بالمدينة يعرف بالكنيسة ف ضرب الطبل فبادر الناس إليه، وأمرهم بأخذ السلاح والزحف على أبي بكر... واتصل ذلك بأبي بكر⁶² فابتدر إلى خاصته من السمحيين "المسيحيين" والرستميين وغيرهم)⁶³ في تقديرنا وجود موضعاً يدعى "الكنيسة" فهذا لا اختلاف فيه، لكن أن تكون "جالية" من المسيحيين من خاصة الإمام ويبادر لها بداعي الاحتماء، فهذا ما يدعوا إلى عدم الاطمئنان لتلك التفسيرات، لذلك نجد كلا من الباحث محمد ناصر وإبراهيم بحاز أكداً في تحقيقهما لمخطوط ابن الصغير، أن الصحيح السمحيين وليس "المسيحيين". نفس الاشكال يطرح مع اليهود والدلالة عليهم جاءت عند بعض الباحثين مثل اسماعيل العربي من خلال كلمة "الرهادنة" قال ابن الصغير: (قال لي يوما ونحن في أعلى مسجد بالرهادنة)⁶⁴، فهذا لا يبرر تواجداً لليهود سيما وأن الموضع يحتضن مسجداً، دون أن نجزم مطلقاً بخلو تيهرت من عناصر يهودية، تبعاً للميزات التي عرفت بها.

إن التدليل عن وجود أهل الذمة بالدولة الرسمية، تعضده ظاهرة التسامح الديني التي عرف بها المجتمع الرسمي، ولما عرف عن هؤلاء من استقرارهم بالمراكز التجارية الكبرى. لكنها تظل مجموعات صغيرة، همها الحفاظ على مكاسبها التجارية، محتمية تحت هذا الطرف أو ذاك، دون أن تجاهر باصطفافها.

الخاتمة:

- بناء على ما تم مناقشته في هذه الورقة، أقف عند الاستنتاجات التالية:
- رغم محاولات الانشقاق المذهبي داخل البيت الإباضي الرسمي، إلا أن مؤسسة الإمامة حافظت على شرعيتها واستمراريتها وفعاليتها في المجتمع التيهري.
 - رغم تمايز المجتمع الرسمي من المركز إلى الأطراف (حضر. بدو)، ظل النقاش والمدافعة السياسية حاضرة بين الإمام والمحكومين، كمؤشر على حيوية وانفتاح البلاط الرسمي.
 - إن "الانتخاب" للمناصب الحساسة في الدولة، لم يكن حكراً على قبيل دون غيره، بل كان الأمر في غالب الأحيان متروكاً لإقتراح للرعية.
 - التباين المذهبي داخل كيان الدولة الرسمية، ظاهرة تنم عن تقبل الاختلاف في إطار المعرفة العلمية الدينية، ولم يكن مبرراً للإقصاء والتكفير.
 - ساعد تمدن المجتمع الرسمي على اندماج وتمازج عناصره الأصيلة والوافدة مع محيطها.
 - وجدت العناصر غير المسلمة فسحة من الحرية السياسية والدينية والاقتصادية، مكنتها من التوغل والاستقرار بين ظهري المجتمع التيهري.

¹ - المقال هو مداخلة أقيمت في ملتقى "الصحراء مجال لبناء الإنسان والحضارة - القبيلة والمجتمع والمدني قراءة سوسيو تاريخية" - المنعقد يومي 22 و 23 نوفمبر 2017. بجامعة طاهري محمد. بشار

² - أول محاولة لتأسيس الإمامة الاباضية ببلاد المغرب كانت بقيادة عبد الله بن مسعود التجيبي ثم المحاولة الثانية بزعماء عبد الجبار بن قيس المرادي، ثم اسماعيل بن زياد النفوسي، ثم تأتي إمامة أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري عام 140هـ / 757م، الذي تمكن من دخول القيروان عام 141هـ، إلى أن قتل بمعركة تاورغة 144هـ / 761هـ، لتنتقل الإمامة بعد ذلك إلى أبي حاتم الذي يعد من حملة العلم الخمسة، قتل هذا الأخير في معركة مغمداً عام 155هـ أمام القائد العباسي زيد بن حاتم المهلي والي مصر.

³ - ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج6، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس: خليل شحادة وسهيل زكار، دار الفكر 2000، بيروت، ص 247.

⁴ - ابن الصغير، أخبار الأئمة الرستميين، تحقيق وتعليق: محمد ناصر وإبراهيم بحاز (ب ت) (ب ن)، ص 26

⁵ - ترى الإباضية أن الإمامة (خلافة الرسول "ص" في إقامة الدين وحفظ حوزة الملة) وقالوا: (رئاسة عامة في أمور الدين والدنيا لشخص). ورغم تعدد فرق الخوارج (حوالي 20 فرقة) تجمعهم معتقداتهم في موضوع الخلافة والإمامة، وشروطها ويفترقون بعد ذلك. والإباضية المذهب الوحيد الذي انفرد بتقسيم الإمامة عبر مسالك الدين: إمامة الظهور إمامة الدفاع إمامة الشراة إمامة الكتمان. ينظر: عدون جهلان، الفكر السياسي عند الإباضية، ص 92 و 127. ط مكتبة الضامري عمان مسند 1999

⁶ - ابن الصغير، نفس المصدر، ص 27

⁷ - نفسه، ص 26. يورد الدرجيني قوله (إت عبد الرحمن بن رستم ممن لا يتجهلون فضله، وهو أحد حملة العلم وعامل الإمام أبي الخطاب وقد كان المسلمون عرضوا عليه الإمامة قبل تولية أبي الخطاب فأعرض عنها... فهو أهل للإمامة لدينه وعلمه وسابقتها ومكانه وغير ذلك من حميد أوصافه، لاسيما وليست له قبيلة تمنعه)، الدرجيني، كتاب طبقات المشايخ، حققه وقام بطبعه إبراهيم طلاي، (ب ت ج 1، ص 42

⁸ - إبراهيم مجاز، شروط الإمامة عند الرستميين، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، ع 19 (2013) ص ص 229-233.

⁹ - ابن الصغير، مصدر سابق، ص 26

¹⁰ - يدفعنا اقترح ابن فندين إلى طرح تساؤل: هل ابن فندين رأى أن ممارسات الإثمة بعيدة عن الشرع؟ كما تعود هنا نفس المسألة التي طرحت غداة مقتل أبا الخطاب. وهي محاولة جعل الإمامة تحت إمرة جماعة ضغط قبلية معينة. عبد العزيز بن الأوز كان ينادي بأعلى صوته: (الله سائلكم معاشر نفوسة، إذا مات واحد جعلتم مكانه آخر، ولم تجعلوا الأمر للمسلمين) ابن الصغير، مصدر سابق، ص 156.

¹¹ - الشماخي، مصدر سابق، ج 2، ص 275.

¹² - بني ففرن هم أحوال الإمام عبد الوهاب الرستمي، كما أن ابن فندين كان ضمن أعضاء هيئة الثمانية الشورية التي جعل فيها عبد الرحمن بن رستم الإمامة سنة 171هـ/787م، وهم: مسعود الأندلسي، يزيد بن فندين، عمران بن مروان الأندلسي، أبي الموفق سعدوس بن عطية، شكر بن صالح الكتامي، مصعب بن سدمان، عبد الوهاب بن عبد الرحمن.

¹³ - عبد الجواد ياسين، السلطة في الاسلام: نقد النظرية السياسية، (ب، ت) (ب، ن) ص 336.

¹⁴ - ابن الصغير، مصدر سابق، ص 44

¹⁵ - Moncef Gouja, Aux origines de la pensée arabe, France, Transbordeurs, 2003, p 72.

¹⁶ - ابن الصغير، نفس المصدر، ص 44.

¹⁷ - نفسه، ص 49.

¹⁸ - خلافا لما أثراه حول وفد مزانة وسدراته في الافتراق الأول للإباضية.

¹⁹ - سنن أبي داود، كتاب الأدب الحديث رقم 4842.

²⁰ - ابن الصغير، مصدر سابق، ص 50.

²¹ - نفسه، ص 52.

²² - (حدثني غير واحد من أصحابنا أن نفوسة كانوا أطوع رعايا بالدولة الرستمية وأكثرها عونا على الخير وأشدّها بأسا ... وفي ذلك يقول الإمام : إنما قام هذا الدين بسيف نفوسة وأموال مزانة) ينظر: الدرجيني، مصدر سابق، ص 1، ج 1، ص 87

²³ - ابن الصغير، مصدر سابق، ص 49.

²⁴ - إبراهيم بكير مجاز، الدولة الرستمية: دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية، ص 155 نقلا عن زهير ص 243.

²⁵ - زهير تغلات، الفكر السياسي الإباضي، ص 244

²⁶ - ابن الصغير، مصدر سابق، ص 75.

²⁷ - نفسه، ص 76

²⁸ - ابن الصغير، مصدر سابق، ص 96

- 29- الدرجيني، مصدر سابق، ج 1 ص 56.
- 30- نفسه، ج 1 ص 61.
- 31- أبو زكرياء يحيى بن أبكر، كتاب سير الأئمة وأخبارهم، حققه ووضع هوامشه إسماعيل العربي، ط 3، 1984، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص 102.
- 32- فاطمة بالهوارى، إسهام حكام بني رستم في أسلمة وتعريب مجتمع المغرب الأوسط، مجلة عصور، ع 22- 23 جويلية - ديسمبر 2014، ص 137-151.
- 33- ابن الصغير، مصدر سابق، ص 92.
- 34- نفسه، ص 111.
- 35- نفسه، ص 102.
- 36- الدرجيني، مصدر سابق، ج 1 ص 43/ الباروني، الأزهار الرياضية، ج 2، ص 29.
- 37- أبو زكرياء: كتاب سير الأئمة وأخبارهم، ص 169/ الباروني: الأزهار الرياضية، ص 292/ الدرجيني، لا يصرح بوجود الصفرية بتيهت، طبقات المشايخ، ص 94.
- 38- ابن الصغير، الجزائر 1986، ص 82. وهناك مناظرات عقدت بمكة مثل التي عقدها العالم الإباضي أبو عبيد الله وواصل بن عطاء مؤسس مذهب الاعتزال. ينظر: أبو عمران الشيخ، قضايا في الثقافة والتاريخ، ثالة الأبيار الجزائر، ط 2، 2006، ص 44.
- 39- أبو زكرياء، مصدر سابق، ص 108. الدرجيني، مصدر سابق، ج 1 ص 60 62.
- 40- الدرجيني ج 1 ص 83.
- 41- ابن الصغير، مصدر سابق، ص 92.
- 42- نفسه، ص 102.
- 43- محمد علي دبوز، تاريخ المغرب الكبير، ج 3، ص 300، وفي كتاب ابن الصغير لم يورد ذكرا لليهود، وإنما أشار لكلمة الرهادنة. ص 117.
- 44- غوتيه، ص 157.
- 45- المقصود الفتنة التي حدثت بسبب إخراج الإمام لمحمد بن حماد ومحمد بن رباح من المدينة ونزلا بضبعة ابن حماد يقال لها المثلث وهما اللذان عقدا له الإمارة. فألبا عليه أهل المدينة.
- 46- ابن الصغير، مصدر سابق، ص 111.
- 47- جودت عبد الكريم: العلاقات الخارجية للدولة الرستمية، ص 231، يفسر عدم وضوح المذهب السائد بسجلماصة إلى كثرة الأموال في أيدي السجلماسيين مما جعل منهم جماعة مترفة، لا يعرفون التعصب لمذهب معين، و بها يمكن تفسير علاقة الود التي قامت بين الدولة المدراية الصفرية الإباضية والرستمية، وإلى ضعف قدراتها العسكرية، ص ص 229-231.
- 48- ابن الصغير، مصدر سابق، ص 48.
- 49- إسماعيل العربي، المدن المغربية، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984، 143،
- 50- "عراق المغرب"، هذه المقولة تحمل على وجهين: الأول يتمثل في تنوع العناصر البشرية المشكلة للمجتمع التيهرتي بما فيهم عناصر عراقية. ثانيا يتمثل في تنوع المذاهب والنحل بتيهت.
- 51- البعقوبي، كتاب البلدان، دار الكتاب العالمية، بيروت، ص 192. المقصود بقوله: "أقوام من الفرس" أي أن صاحب الإمامة فيها من بني عيد الرحمن بن رستم الفارسي.
- 52- ابن الصغير، مصدر سابق، ص 31.
- 53- كان هؤلاء الجند أعلنوا تمردهم في مناسبات كثيرة على الأغلبية واستقروا بعد ذلك بتيهت، وأسسوا ريشا كبيرا بما صار كالمدينة العامرة، وكانوا في خدمة محمد بن عرفة، الذي مكانة مميزة عند الإمام أفلح (وكان محمد بن عرفة إذا ركب من داره يريد أبا بكر مشى بين يده ومن خلفه ومن يمينه ومن يساره أمم من الأمم)، ينظر: ابن الصغير، مصدر سابق، ص 63.

- ⁵⁴ - نفسه، ص 94.
- ⁵⁵ - نفسه، ص 71.
- ⁵⁶ - ابن الصغير، مصدر سابق، ص 62.
- ⁵⁷ - ربما القول بذلك هو الذي دفع بعض الباحثين إلى اعتبارهم من خاصة الأئمة الرستميين. عيسى الحريزي، الدولة الرستمية بالمغرب الاسلامي حضارتها وعلاقتها الخارجية بالمغرب والأندلس 160هـ - 297هـ الطبعة 03 الكويت دار القلم 1408 - 1987
- ⁵⁸ - محمد علي ديبوز، تاريخ المغرب الكبير، ج 3، ص 299
- ⁵⁹ - محمد علي ديبوز، نفسه، ج 3، ص 303
- ⁶⁰ - ابن الصغير، مصدر سابق، ص 54
- ⁶¹ - نفسه، ص 35 36
- ⁶² - فترة إمامته (258-260هـ)
- ⁶³ - محمد علي ديبوز، تاريخ المغرب الكبير، ج 3، ص 300، وفي كتاب ابن الصغير لم يورد ذكرا لليهود، وإنما أشار لكلمة الرهادنة. ص 117.
- ⁶⁴ - ابن الصغير، مصدر سابق، ص 111.